الباب الرابع والعشرون

في الفراسة والذكاء

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٥] وجاء في الحديث النبوي الشريف، فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله**» أخرجه البخاري والترمذي.

العصا من هذه العصيَّة:

وجاء في مجمع الأمثال للميداني الجزء الأول صفحة ٤٤ المثل: إن العصا من تلك العصية) رقم ٣٢، وقال المفضل الضبي: أول من قال هذا المثل: الأفعى الجرهمي حكيم العرب في زمانه، وذلك أن نزار بن معد بن عدنان لما حضرته الوفاة جمع بنيه مضر وإياداً وربيعة وأنماراً، فقال: يا بنيّ هذه القبة الحمراء، وكانت من أدم، لمضر. وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة، وهذه الخادم وكانت شمطاء لإياد، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون، فأتوا الأفعى الجرهمي، ومنزله بنجران.

تنفيذ وصية الوالد:

فتشاجروا في ميراثه، فتوجهوا إلى الأفعى الجرهمي، فبينما هم في مسيرهم إليه إذ رأى مضر أثر كلإ قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور، وقال ربيعة: إنه لأزور، وقال إياد: إنه لأبتر، وقال أنمار: إنه لشرود.

فساروا قليلاً، فإذا هم برجل ينشد جمله، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟. قال صاحب الجمل: نعم. قال ربيعة: أهو أزور؟. قال صاحب الجمل: نعم. قال إياد أهو أبتر؟. قال صاحب الجمل: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟ قال صاحب الجمل: نعم.

صاحب الجمل:

هذه والله صفة جملي، فدلوني عليه، قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب. وتعلّق صاحب الجمل بهم، وقال: كيف أصدقكم أنكم لم تروا جملي وأنتم تصفونه أصدق وصف، فسار الرجل معهم حتى وصلوا نجران، فلما نزلوا

نادى صاحب الجمل: إن هؤلاء القوم أخذوا جملي ووصفوا لي صفاته، ثم قالوا: لم نره فاختصموا إلى الأفعى الجرهمي، وهو حكيم العرب.

فقال الأفعى الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه؟. قال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً، فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى غير ثابتة، فعلمت أنه أزور، لأن أثره الثاني أفسده لازوراره.

وقال إياد :عرفت أنه أبتر باجتماع بعره، ولو كان ذيالاً لمصع به، وقال أنمار: عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم يجوزه إلى مكان آرق منه وأخبث نبتاً، فعلمت أنه شرود.

حينئذ قال الأفعى الجرهمي للرجل : ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه، ثم سألهم الأفعى من أنتم؟ فأخبروه، فرحّب بهم ثم أخبروه بما أقدمهم إليه.

أقوال الإخوة الثلاثة:

فقال : أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى؟. ثم أنزلهم فذبح لهم شاة وأتاهم بخمر، وجلس لهم الأفعى الجرهمي بحيث يسمع كلامهم ولا يرى مكانه، فقال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة، فقال مضر: لم أر كاليوم خمراً أطيب منه لولا أن حبتها نبتت على قبر، وقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له. وقال أنمار: لم أر كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنا من كلامنا ، وكان كلامهم بإذنه.

فقال الأفعى الجرهمي: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم دعا القهرمان فقال: ما هذه الخمرة؟ وما أمرها؟. قال المسؤول: هي من حبة غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب منه، وقال للراعي : ما أمر هذه الشاة؟.

قال الراعي: هي عناق أرضعتها بلبن كلبة، وذلك أن أمها كانت قد ماتت ولم تكن في الغنم شاة ولدت غيرها، ثم أتى أمه فسألها عن أبيه، فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لا يولد له فيذهب الملك، فأمكنت من نفسي ابن عم له كان نازلاً عليه ، فخرج الأفعى الجرهمي إليهم.

تفسير كلام الوالد:

وقال : إليكم تفسير كلام أبيكم في قسمة الميراث فيما يلي:

فيقصد : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر،فذهب بالدنانير والإبل والحمر فسمي (مضر الحمراء) لذلك.

وقال: وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود، فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيل الدهم فيقال: (ربيعة الفرس).

وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد فصارت له الماشية البلق من الحلق والنقد، فلذا سمي (إياد الشمطاء، وقضي لأنمار بالدراهم،وبما فضل، فسمي لذلك (أنمار الفضل).

فرجعوا من عنده على ذلك، ورضوا بحكمه، فقال الأفعى الجرهمي إن العصا من العصية، وإن خشيناً من أخشن، ومساعدة الخاطل تعدّ من الباطل، فأرسلها مثلاً وخشين وأخشن: جبلان أحدهما أصغر من الآخر، والخاطل الجاهل والخطل في الكلام اضطرابه.

فوائد الفراسة:

إن الفراسة هي الأخذ بالسيماء، والعلامات والإشارات، وقرائن الأحوال في إصدار حكم، أو إطلاق وصف على شخص ما، فتظهر النتيجة وفق الحكم أو الوصف، ولكن لذلك رجال لهم من الفطنة والفراسة ما ليس لغيرهم، كما مرّ بنا في خبر أبناء نزار بن معد بن عدنان مع الأفعى الجرهمي.

وللفراسة فوائد في حلّ كثير من المسائل العويصة،وتفريج الأزمات وقد يلجأ إليها القاضي الزكن، عند تأزّم الأمور، واختلاط الدلائل واشتباه القرائن، فلا يظهر وجه الصواب، وإحقاق الحق في حادثة ما، التي يراد إصدار حكم صحيح صريح بشأنها.

ومن ذلك ما يروى، أن يتيما كان في بني إسرائيل يسمى (دانيال) فقد أباه وأمه، وليس له قريب يتولى كفالته، والإنفاق عليه وتربيته ، فضمته امرأة وكفلته، وكانت تلك المرأة من أجمل نساء زمانها في بني إسرائيل، وكانت حصيفة عاقلة مهيبة.

وكانت تدخل على الملك من أجل تقديم النصح ، فأحبّها الملك لما علم من محضها النصح، فصارت محظية لدى الملك، يستمع إليها ويقبل مناصحتها، فحسدت من أجل ذلك، وتآمر عليها بعضهم ولفّقوا لها تهمة الزنى .

وكان للملك قاضيان أحبّا المرأة ودفعهما حبّهما للمرأة أن يقوما بمراودتها عن نفسها، فأبت لأنها امرأة عاقلة عفيفة ، فتآمرا عليها وشهدا عليها زوراً وبهتاناً عند الملك بأنها بغي ، ويجب محاكمتها بتهمة الزنى .

فدخل الملك من ذلك أمر عظيم، واشتّد غمّه، وكان بها معجباً لرزانة عقلها، وتقديم نصحها للملك، ولكن ماذا عساه أن يعمل لدرء هذه التهمة بالشبهات،فلثقته قَبِلَ حكم القاضيين برجم المرأة، فوافق على تنفيذ حكم الرجم على المرأة، وأصدر أمره بتنفيذ الحكم بعد ثلاثة أيام ليعلم الناس، ويحضروا وقت تنفيذ حكم الرجم، فليحضر منهم القاصي والداني لأخذ العبرة ويكون ذلك ردعا لمن تسوّل له نفسه اقتراف جريمة الزنى .

فأمر الملك منادياً ينادي في البلاد، إن الملك يطلب منكم يو م كذا حضور تنفيذ حكم الرجم، على فلانة بنت فلان الفلانية بعد أن شهد القاضيان عليها بارتكاب جريمة الزنى، فضجّ الناس وكثر القيل والقال حول الموضوع ، إذ خامرهم الشك أن تكون المرأة التي عرفها الناس بما فيهم الملك، بالعفة والترفع عن سفاسف الأمور .

وقال الملك لكاتم سره وموضع ثقته، إنني لا أخفي عليك ينتابني شك في شهادة القاضيين، فهل عندك ما يدفع ذلك عن تنفيذ الحكم؟.

فقال الرجل وماذا عساي أن أعمل وثقة الناس في القاضيين يدفع كل احتمال للوصول إلى وجود أي سبب قد يدفع القاضيَيْنِ إلى تلفيق مثل هذه الشهادة .

ذكاء يظهر الحقيقة :

فخرج الرجل كاتم سرّ الملك، من عند الملك يفكّر في الأمر، وهو يتجول في البلد، رأى أولاداً صغاراً يلعبون، يتزعّمهم اليتيم (دانيال)، وهو لا يعرفه، فقال اليتيم (دانيال) للأولاد تعالوا نشكّل محكمة، نحاكم فيها المرأة البغي فأنا أمثل الملك، وأنت يا فلان تمثل المرأة المتهمة، وأنت يا فلان تمثل القاضي فلاناً الشاهد الأول،

وأنت يا فلان تمثل القاضي فلان الشاهد الثاني،ثم قال للأولاد الآخرين أنتم جنود الملك، واتخذ سيفاً من قصب، وقال: خذوا بهذا القاضي إلى المكان الفلاني، واتركوا هذا القاضي للسؤال ففعلوا ما أمر به، ففرق بين الشاهدين، وكاتم سرّ الملك يتابع ما يدور بين الأولاد، في مداولة المحاكمة برئاسة الغلام (دانيال).

ويحكى أن أول من فرق بين الشهود هو اليتيم (دانيال) الذي مات أبوه وأمه، وكفلته المرأة العاقلة الحسناء المتهمة بشهادة قاضيي الملك.

طلب (دانيال) الشاهد الأول ، موجها إليه قوله: قل الحق، فإن لم تفعل قطعت عنقك بهذا السيف، بأي شيء تشهد على المرأة؟، فقال القاضي (الشاهد الأول): أشهد أنها بغت، قال له (دانيال): متى كان ذلك؟ قال في يوم كذا وكذا، قال (دانيال) : مع من كان ذلك؟ قال الشاهد : مع فلان بن فلان، قال (دانيال) : في أي مكان صار ذلك؟ فقال الشاهد في المكان الفلاني.

ثم لما تمّ استجواب الشاهد الأول، ودونت أقواله، طلب (دانيال) إرجاعه إلى مكانه الأول.

ثم طلب (دانيال) من الجنود إحضار الشاهد الثاني لأخذ أقواله، فشرع (دانيال) في استجوابه، وبعد أخذ أقواله،وقورنت باعترافات الشاهد الأول، تبين أن التغاير في أقوالهما، والاختلاف والتباين، يكون لصالح المتهمة وأن الاتهام الذي اتهمت به المرأة الصالحة الحسناء لا أساس له من الصحة، وبالتالي وبناء على اختلاف أقوال الشاهدين، فإن المرأة بريئة مما اتهمت به.

ولما سمع كاتم سر الملك ما دار بين الأولاد، من مداولات في المحكمة الصورية وماتوصل إليه (دانيال) من اختلاف أقوال الشاهدين، وظهور براءة المرأة الحصيفة، ذهب إلى الملك يزفّ له البشارة، وأن ما قام به الأولاد بتشكيل المحكمة الصورية برئاسة (دانيال)، ومتابعة مداولات المحكمة، وصدور الحكم ببراءة المتهمة.

على الباغي تدور الدوائر:

شكّل الملك محكمة برئاسته، طبقا للمحكمة التي شكّلها الغلام: (دانيال) وأرسل إلى القاضيين يطلب حضورهما، فلما وصلا،فرّق الملك بينهما، وشرع

في استجوابهما، فوجد تضارب أقوالهما واختلاف شهادتهما، علم أن القاضيين تآمرا على المرأة ظلماً وحسداً،وأن المرأة بريئة براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وحينئذ أمر الملك منادياً ينادي في الناس أن يحضروا تنفيذ حكم الإعدام على القاضيين اللّذين قذفا المرأة العاقلة الناصحة بالزنى ظلماً وعدواناً وحسداً من عند أنفسيهما وكان الفضل يرجع إلى محكمة (دانيال) الصبيانية، فلولا ما قام به اليتيم (دانيال) من تفريق بين الشاهدين، لنفذ حكم الرجم في المرأة البريئة، ولكان ذلك سبباً لإزهاق الأرواح، وقتل الأبرياء.

فراسة عضد الدولة:

ومما يروى عن فراسة عضد الدولة: أن رجلا قدم إلى بغداد في طريقه إلى حج بيت الله الحرام، وكان عنده عقد راغباً في بيعه، ولكن لم يجد الثمن الذي أراد بيعه به، يساوي ألف دينار، فاجتهد في بيعه فلم يوفق ،فذهب إلى عطار موصوف بالخير والصلاح، فأودعه عنده، ثم ذهب إلى الحج، ولما رجع الرجل من حجّه جاء إلى العطار وقدّم له هدية متواضعة، وطلب عقده الذي تركه عنده أمانة.

فلما قدّم الرجل الهدية إلى العطار،أخذ يسأله ويوهمه أنه لا يعرفه: من أنت؟. فقال الرجل: أنا صاحب العقد الذي أودعتك إيّاه، فغضب العطار على الرجل ودفعه عن دكانه ،وقال : تدّعي أنك تركت عقداً عندي؟.

فاجتمع الناس يدافعون عن الرجل العطار، قائلين: ويلك يا حاج هذا رجل خيروصلاح، أما وجدت من تدّعي عليه، إلا هذا الرجل الأمين الصالح في البلد.

فتحيّر الرجل الحاج، وتردد إليه مراراً وتكراراً، فما آرعوى الرجل العطار، ولم يحصل الرجل الحاجّ الغريب إلاّ الشتم والضرب، واقترح عليه رجل أن يذهب إلى أميرالمؤمنين عضد الدولة، فله أساليب في الفراسة، فاعرض عليه أمرك مع هذا العطار،لعله يعمل لك شيئاً في استرجاع عقدك.

فكتب قصته ورفعها إلى أميرالمؤمنين عضد الدولة،ولما وصلت الرسالة إلى عضد الدولة طلبه في الحال، وسأله عن قصته مع العطار، فقال عضد الدولة،

اذهب إلى العطار بكرة واقعد على دكته،فإن منعك من القعود فاقعد على دكة تقابله طول النهار، ولا تكلمه، وافعل ذلك ثلاثة أيام، وسأمرعليك في اليوم الرابع، وأقف وأسلم عليك، فلا تقم لي ولا تزدني على ردّ السلام، وجواب ما أسألك عنه، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد، ثم أخبرني ما يقول لك فإن أرجعه إليك فأتني به.

فذهب الرجل الحاج إلى دكان العطار ليجلس فمنعه،فجلس على دكة تقابله ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع مرّ أمير المؤمنين عضد الدولة في موكبه، فلما رأى عضد الدولة الرجل الحاجّ الغريب وقف وقال: السلام عليكم، فقال الرجل: وعليكم السلام ولم يتحرك من مكانه ولم يقم، فقال عضد الدولة: يا أخي تقدم البلد ولا تأتي إلينا، ولا تعرض حوائجك علينا، فقال الرجل كما اتفّق له من الرّد على تساؤلات عضد الدولة، والرجل بناء على طلب عضد الدولة، لم يقف ولم يتحّرك، وعضد الدولة واقف يحتفي بالرجل، والرجل لا يبادله الحفاوة والتقدير، ولما رأى العطار موقف عضد الدولة والحفاوة التي أبداها نحو الرجل، وكأن عضد الدولة يعرف الرجل معرفة سابقة، فكاد العطار أن يغمى عليه خوفاً وفرقاً من أن تصل قصة العقد إلى عضد الدولة.

لقد فعل الرجل الغريب الحاجّ ما أمره به عضد الدولة،وبحضور العطار وإيهام العطار بأن الرجل على معرفة سابقة وصلة وثيقة بعضد الدولة، فخاف الرجل العطار أن يفتضح أمره لدى عضد الدولة، ويدفع الثمن غالياً.

ولما مرّ عضد الدولة في موكبه،وقف ليسلم على الرجل الحاج الغريب ورد الرجل السلام وهو جالس، وكأنه أعلى قدراً من عضد الدولة، وسؤال عضد الدولة الرجل، وجواب الرجل على أسئلة الأمير،ولما انصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الرجل بدافع الخوف والانفضاح.

فقال العطار للرجل الحاجّ الغريب متلطفاً على غير عادته: ويحك يا رجل متى أودعتني عقدك؟ وفي أي شيء كان ملفوفاً؟ فذكرني بشيء من أوصافه لعلِّي أتذكره، فقال الرجل الحاج: من صفته كذا وكذا.

فقام العطار كأنه يفتش من مكان إلى مكان في زوايا دكانه، ثم عمد إلى جرة في إحدى زوايا الدكان فنفضها فوقع العقد على الأرض،فقال العطار للرجل: أرجو المعذرة، فلو لم تذكرني بأوصافه ما تذكرت، فهذا عقدك خذه بارك الله لك فيه، واعذرني.

ولما استرجع الحاج عقده، فقال الرجل لنفسه: لا أظنّ أن عضد الدولة يهمه استرجاعي للعقد من العطار، ولكن من الناحية الأدبية أَوْلَى أن يعرف عضد الدولة، ويتأكّد بأنني استلمت العقد كاملاً.

فذهب صاحب العقد الحاجّ إلى عضد الدولة ،فأعلمه بذلك ، فبعث عضد الدولة بالعقد مع الحاجب إلى دكان العطار، فعلّق العقد في عنق العطار وصلب أمام دكانه، ونودي عليه، هذا جزاء من استودع شيئاً فجحده، فلما انقضى النهار وعلم الناس أمر العطار والعقد والرجل الحاجّ، أخذ الحاجب العقد فسلّمه إلى صاحبه الحاجّ، وقال له: إذهب به راشداً.

الأمير المهلبي والأعرابي:

ودخل أعرابي يُرَى عليه أثر السفر أشعث أغبر على داود بن يزيد بن أبي حاتم المهلبي، وكان أحد الأمراء الشجعان العقلاء، وكان إذا حضر الطعام يتقدّم بصرف البوابين ولا يمنع أحداً من الوصول إلى طعامه، فلما فرغ من الطعام وثب الأمير قائماً وأومأ إلى الأعرابي، وقال له: من أنت يا فتى؟ قال الأعرابي: شاعر قصدك بأبيات من الشعر، قال داود: مهلاً قليلاً ثم دعا بقوس فأوترها أي جعل لها وتراً، وأومأ إلى الأعرابي وقال له: قل فإن أنت أحسنت خلعت وأجزلت ، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع في أي موضع يقع فيه ، فتبسم الأعرابي وقال:

أمنت بداود وجود يمينه من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود نبوة ولا حدثاناً إن شددت به أزري
له حكم لقمان وصورة يوسف وملك سليما ن وصدق أبي ذر
فتى مهرب الأموال من جود كفه كما يهرب الشيطان من ليلة ا لقدر
فقوسك قوس الجود والوتر والندى وسهمك فيه الموت فاقتل به فقري

فضحك داود بن يزيد المهلبي ورمى بسهمه مع القوس من يده، فقال: يا فتى العرب بالله عليك هل كان ذكر القوس في الأبيات؟

فقال الأعرابي: لا والله ما كان ذكر القوس ضمن الأبيات التي أعددتها ، ففرح الأمير بذلك وقال: يا فتى العرب، بالله عليك أيّما أحبّ إليك أعطيك على قدرك أم على قدري؟

فقال أيها الأمير : اعطني على قدري لا على قدرك، قال: كم على قدرك؟ قال الأعرابي : مائة ألف درهم فأمر له بها.

ثم قال له: ما منعك أن تقول على قدري؟ فقال الأعرابي: أيها الأمير أردت أن أقول ذلك، فإذا الأرض كلها لا تساوي قدر الأمير، فطلبت على قدري، فقال الأمير: لله درك والله إن نثرك لأحسن من نظمك، وأمر له بمائة ألف درهم ثانية، وطلب منه أن يكرّر زياراته اليه.

إذا اشتد الأمر فأبشر:

وهذا موقف شبيه بموقف صاحبنا تميم بن جميل الخارجي، جاء في كتاب الوزراء، عن أبي العباس أحمد بن محمد بن الفرات، عن محمد بن علي بن يونس عن أبيه، أنه كان يكتب لرجاء بن أبي الضحاك، وهو بدمشق عام ٢٢٦ هـ وأن علي ابن إسحاق بن يحيى بن معاذ كان يتقلّد خلافة صول أرتكين على المعونة بدمشق، فوثب على رجاء بن أبي الضحاك فقتله، وقبض على جماعته بسبب ذلك وقال وأودعت السجن، وكان السجان جاراً، فكان يأتيني بالخبر وما يحدث أولاً بأول وساعة بساعة.

فدخل عليّ يوماً فقال: قد خرج رأس صاحبك رجاء على قناة، ثم جاءني وقال قد قتل مطببه، ثم جاءني وقال: قد قتل ابن عمّه، ثم جاءني فقال: قد قتل كاتبه الآخر.

ثم جاءني فقال : قد جاء دورك، والله يدعو بك لتقتل فقد سمعت نبأ ذلك فنالني جزع شديد لما سمعت، وخرج السجان فأقفل الباب عليّ، فدعي بي فدافع عني، وقال: إن البيت الذي هو فيه مقفل،والمفتاح مع شريكي في العمل وسيأتي بعد قليل وبعث في طلبه.

فنالني في تلك الساعة نعاس، فرأيت في منامي كأني ارتطمت في طين كثير وكأني خرجت من ذلك الطين، وما علق بقدمي منه شيء، فاستيقظت وتأولت الفرج ولكن بينما أنا أفكر في تلك الرؤيا إذا بي أسمع حركة مقبلة إليّ شديدة، فما انتابني شك أنها جاءت لطلبي وقتلي، فانتابني جزع أشدّ من الأول.

فدخل السجان وقال: أبشر جاء الفرج فقد أخذ الجند علي بن إسحاق فحبسوه، فلم ألبث إلا يسيراً حتى جاءني الجند فأخرجوني، وذهبوا بي إلى مجلس علي بن إسحاق الذي كان جالساً فيه، فرأيت أمامه دواة وكتاباً، قد كتبه إلى المعتصم في تلك الساعة، يخبره بقتله رجاء،وجعل له ذنوباً ولنفسه معاذير وسماه رجاء المجوسي والكافر، فتناولت الكتاب ومزّقته، وكتبت الخبر كما يجب إلى المعتصم، فحبس علي بن إسحاق طويلاً، ثم أظهر الوسواس، وتكلّم فيه أحمد ابن أبي دؤاد فأطلِقَ.

أهذه فراسة أم ذكاء؟

قال أبو السمراء: يحكى عن فراسة أعرابي، قال: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق، إذا نحن بأعرابي قد اعترض سبيلنا، فإذا هو شيخ فيه شيء من الفراسة والذكاء على بعير له أورق، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحاق بن إبراهيم الرافقي، وإسحاق ابن أبي ربعي، ونحن نساير الأمير، وكنا يومئذ أفره دواباً وأجود لباساً من الأمير.

فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا نظر المستغرب، فقلت: يا شيخ قد حدقت فيّ النظر وألححت فيّ الأثر، أعرفت شيئاً من أمرنا أم أنكرت ما لم ينكر؟ فقال الأعرابي: لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتكم لسوء رأيته فيكم ولكني رجل حسن الفراسة في الناس، جيد المعرفة بهم، فأردت أن اختبر فراسته وادعاءه، فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربعي، فقلت: ما تقول في هذا؟ فأنشد قائلاً:

أرى كتاباً داهي الكتابة بيّن عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن أنه عليم بتقسيط الخراج بصير

ثم نظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي، فقال:

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جبناً وبخلاً وشيمة تخبّر عنه أنه لوزير

ثم استمر في الإنشاد بعد أن نظر إليّ نظر تفحّص:

وهذا نديم للأمير ومؤنس يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راوياً فبعض نديم مرة وسمير

ثم نظر إلى الأمير عبد الله بن طاهر وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبة ووجه بإدراك النجاح بشير
لقد عصم الإسلام منه بذائد به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبد الإله بن طاهر لنا والد برّ بنا وأمير

فوقع ذلك الشعر من الأعرابي في قلب الأمير عبد الله بن طاهر أحسن موقع فأمر له بخمسمائة دينار، وطلب منه أن يصحبه، فاعتذر الأعرابي عن ذلك.

فراسة طاهر بن الحسين:

كان طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي، أكبر من اشتهر في عهد أمير المؤمنين المأمون بقيادة الجيوش، يمن النقية وبعد الصيت، فهو الذي وطد الحكم للمأمون، لما كان المأمون في مرو، فانتدب طاهراً للزحف إلى بغداد، فهاجمها وظفر بالأمين فقتله عام ١٩٨ هـ، وعقد البيعة للمأمون، فولاه شرطة بغداد، ثم ولاه الموصل وبلاد الجزيرة والشام، ثم ولاه خراسان سنة ٢٠٥هـ، وكان في نفس المأمون شيء عليه لقتله أخاه الأمين بغير مشورته.

فلما استقر طاهر بن الحسين بخراسان انقبض عن المأمون، وأخذ حذره، فأعد له المأمون وصيفاً، وأدبه وعلمه كثيراً من فنون العلم، ثم أهداه إليه مع

ألطاف كثيرة وطرف وهدايا من العراق، وعهد المأمون إلى الوصيف بأن يخدم طاهر بن الحسين على أن يقوم بسمه أثناء الخدمة، وأعطاه سم ساعة، ووعده بمال كثير بعد تنفيذ الخطة.

فلما وصل الوصيف خراسان، ودخل على طاهر بن الحسين ،وأوصل الهدايا التي أرسلها أمير المؤمنين المأمون قبلها طاهر بن الحسين، وشكر أمير المؤمنين على ذلك، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من رغد العيش، وتركه شهراً كاملاً فبرم الوصيف بمكانه ، فكتب إليه قائلا:

(يا سيدي إن كنت تقبلني فاقبلني، وإلا فردني إلى أمير المؤمنين، فأرسل إليه وأمر بإدخاله، فلما انتهى إلى باب المجلس الذي فيه طاهر بن الحسين أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لبد أبيض، وليس على فراش وثير فقرع رأسه بالعصا، وكان بين يديه مصحف منشور، وسيف مسلول فقال:

لقد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك، فإنا لا نقبلك،وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، وليس عندي جواب أكتبه إلا ماترى من حالي،فأبلغ أمير المؤمنين السلام، وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها.

فراسة المأمون:

فلما قدم الوصيف على المأمون، وأخبره بما كان من أمره، ووصف له حال طاهر بن الحسين، فشاور المأمون وزراءه وأعيان الدولة في ذلك، وسألهم عن ما يرمز إليه طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي،فلم يعرف أحد شيئاً عن ذلك.

فقال المأمون لكنني قد فهمت ما يرمز إليه: أما قرع رأسه وجلوسه على اللبد الأبيض، فهو يخبرنا أنه عبد ذليل، وأما المصحف المنشور فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا، وأما السيف المسلول فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فالسيف هو الحكم بيني وبينك، أغلقوا عنا باب ذكره، فنحن في غنى عن إثارة الفتنة، فتركه المأمون وشأنه حتى مات.

فراسة النبي سليمان:

فمن مواقف الفراسة والدهاء: ما رواه أبو هريرة ﷺ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خرجت امرأتان ومعهما صبيان، فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصمتا في الصبي الباقي إلى النبي داود عليه السلام، فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى النبي سلميان بن داود عليهما السلام**».

فقال النبي سليمان بن داود: ائتوني بسكين أشقّ الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى: أتشقّه يا نبيّ الله؟ قال النبيّ سليمان: نعم. قالت: لا تفعل، ونصيبي فيه للكبرى. حينئذ قال النبي سليمان عليه السلام للصغرى: خذيه فهو ابنك وقضى به للصغرى لما رأى من رحمتها به وشفقتها عليه. أخرجه الشيخان والنسائي.

فطنة ملك الروم:

ومن ذكاء وفطنة قيصر الروم في زمان معاوية بن أبي سفيان، ما يروى أنه لما كبر معاوية بن أبي سفيان اعتراه أرق شديد، فكان لا ينام إلا قليلا من الليل، وكان كلّما أتى مضجعه لينام أيقظته النواقيس المنبعثة من كنائس الروم في دمشق الشام.

وفي صباح يوم من الأيام حينما دخل عليه الناس، قال: يا معشر العرب هل فيكم فتى يفعل ما أطلبه منه وأعطيه ثلاث ديات أعجلها له، وديتين إذا رجع من مهمته؟ فقام فتى شهم شجاع من قبيلة غسان، فقال: أنا يا أمير المؤمنين، فما هو المطلوب؟. قال معاوية: تذهب بكتابي هذا إلى ملك الروم قيصر، فإذا صرت أمامه على بساطه أذّنت، فقال الفتى له: ثم ماذا بعد ذلك؟. قال معاوية: تلك هي رسالتي وذلك هو طلبي.

فقال الفتى الغساني: لقد كلّفت صغيراً، وأتيت كبيراً، فكتب معاوية الرسالة وسلّمها له، فخرج الفتى بالرسالة من عند معاوية، فلمّا وصل الفتى إلى قيصر ملك الروم سلّم الرسالة إليه، وأذّن أمام الملك،وعلى بساطه، فارتاع البطارقة، وسلّوا

سيوفهم لقتل الفتى العربي، رسول معاوية بن أبي سفيان، ففطن ملك الروم قيصر لِمَا دبرّه معاوية، فمنعهم من قتله.

ثم نادى ملك الروم الفتى، فأجلسه بين يديه، والتفت إلى البطارقة قائلاً: يا معشر البطارقة، إن معاوية رجل قد أسنّ، ونتيجة لتقدمه في السنّ أصابه الأرق، وقد آذته النواقيس بأصواتها فدبّر هذه الحيلة والمكيدة، فأراد أن نغضب على الفتى فنقتله بسبب أذانه أمامنا، فيقتل بسبب ذلك من ببلاده من قومنا على النواقيس.

فمن أجل ذلك أخلف ظنه فينا، فأكرم الفتى ولا أقتله حتى يرجع إليه سالماً غانماً مكرماً، فأكرمه ملك الروم قيصر، وأعطاه من الهدايا ما خيّب به ظنّ معاوية فلما رجع الفتى العربي إلى معاوية قال له معاوية: أوقد جئتني سالماً؟ قال الفتى العربي: نعم جئتك سالماً منهم، وأما من قبلك فلا.

لقد كان معاوية بن أبي سفيان داهية، ولكن صار ملك الروم قيصر أدهى منه، إذ فوّت عليه فرصة الانتقام من الروم الموجودين في دمشق، لقد أذَّن الفتى العربيّ أمام قيصر الروم، وظنّ معاوية بأن رسوله إلى قيصر سيقتل، وبالتالي سيكون له ما يبرّر به قتله للروم في دمشق.

من ذكاء معن بن زائدة:

يحكى أن معن بن زائدة الشيباني، بعد أن أسنّ، دخل يوماً على أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، فقال له: يا معن لقد كبرت. فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، فقال: وإنك لا زلت فيك بقية، فقال معن: هي لك يا أمير المؤمنين. وأن فيك قوة يا معن، قال معن: هي على عدوك يا أمير المؤمنين.

وقال أبو جعفر المنصور يوماً لما دخل عليه معن بن زائدة الشيباني: ما أكثر وقوع الناس في قومك يا معن. فقال معن: يا أمير المؤمنين:

إن العرا نين تلقاها محسَّدة ولا ترى للئام الناس حسادا

فقال لله درك يا معن

ودخل على معن بن زائدة أحد الفصحاء البلغاء يوماً، فقال له: إن لو أردت أن استشفع إليك ببعض من يثقل عليك لوجدت ذلك سهلاً، ولكني استشفعت

إليك بقدرك، واستغنيت بفضلك، فإن رأيت أن تضعني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك فافعل، وغني لم أكرم نفسي عن مسألتك، فأكرم وجهي عن ردك، فأكرمه وأحسن إليه غاية الإحسان.

فطنة الإمام عبد الوهّاب الرستمي:

يروى أنه لما توفي الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية في بلاد المغربي الأوسط (الجزائر) ١٦٠هـ، وقدم أصحاب الحلّ والعقد ولده عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً فسار سيرة والده، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وضبط الأمور بأخذ يد الظالم، وإنصاف المظلوم.

خرج عليه بعض من الذين مرضت قلوبهم، يريدون الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون، فشقّوا عصا الطاعة، يتزعّمهم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، وأظهروا الإنكار على الإمام عبد الوهّاب في توليته لبعض رجال مناصب في الدولة، وأنهم ليسوا أهلاً ولا أكفاء، في نظر الخارجين على طاعة الإمام عبد الوهّاب، مدّعين أنهم هم أولى بتلك المناصب التي أسندت إلى غيرهم وأثاروا ضجة على الإمام عبد الوهّاب، وقالوا إنه لا يصلح عبد الوهاب للإمامة، ونحن في حلّ من بيعته وطاعته، واستمالوا إليهم بعض الناس البسطاء ممن كانوا على شاكلتهم، في طلب الحياة الدنيا.

وكان الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رستم، من الرجال العلماء العاملين، الذين لا يقعقع له بالشنآن، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ضرب على أيديهم وحاصرهم.

ثم إن القوم الخارجين على طاعة الإمام لم ينالوا ما رغبوا فيه، دبّروا مكيدة لقتل الإمام، ولذكاء الإمام وفطنته وشجاعته استطاع أن يكشف أمرهم ويقضي على مكيدتهم في مهدها، وملخص تلك المكيدة:

ولما رأى الخارجون عن طاعة الإمام خيبة مساعيهم وتحقّقوا عدم نجاحها، فكّروا في تدبير مكيدة تضمن لهم حصول مطالبهم، وبلوغ مآربهم، فكّروا في حبك مؤامرة للغدر بالإمام وقتله.

وقد علموا أن للإمام بيتاً خصّصه لنفسه،فيه ما يحتاج إليه من كتب وغيرها، فيخلو فيه للمطالعة والتهجّد، وتصريف أمور المسلمين، وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من العلماء المحققين، كان شغوفا بالبحث والتحقيق، ولذلك طلب أن يشترى له كتب من إخوانه المشارقة، وبعث أموالاً لذلك فاستنسخ له حمل أربعين جملاً كتباً، ولما وصلت إليه عكف على قراءتها، وبعد الانتهاء من قراءة تلك الكتب، قال: ما استفدت من قراءة تلك الكتب إلا مسألتين فقط، ولو سئلت عن تلك المسألتين، لكنت أجبت عنهما بما يقرب من الإجابة مما استفدت، وهذا يدل على علمه الواسع.

اتفق القوم الخارجون على طاعة الإمام، أن يجعلوا رجلاً في صندوق ذي قفل من الداخل، ويضعوا عنده سلاحاً، ويحمل الصندوق رجلان منهم ممن لا ريبة فيهم إلى الإمام، ويظهران للإمام أنهما مختلفان متنازعان فيه، ويطلبان من الإمام أن يحفظ الصندوق على وجه الأمانة حتى يتفقا ويعودا إليه.

وكأنهم علموا مسبقاً أنه إذا قبله الإمام ألا يضعه إلا في ذلك البيت الذي خصّصه الإمام لنفسه، محافظة على الأمانة وحرصاً عليها، فإذا أوى الإمام إلى فراشه ونام ، وتيقن الرجل الذي في الصندوق أن الإمام قد نام فتح الصندوق من الداخل فخرج سالًّا السيف على الإمام، وكان المتفّق معه على تنفيذ الخطة وهو لا يعلم أنه سيكون هو الضحية.

واتّفقوا معه أنه إذا قتل الإمام يذهب إلى منارة المسجد ويؤذن فيها ليعلموا تمام مرادهم فيهاجموا حينئذ المدينة على حين غفلة من أهلها، ويحتلوا دار الإمارة، ويوزعوا أنفسهم على الأماكن المهمة، ويفرضوا أمرهم على الناس، فكان ذلك ما دبروه.

فلما جاؤوا بالصندوق إلى الإمام عبد الوهّاب، أجاب طلبهم وأمرهم بحمله إلى البيت المخصوص، ولاحظ حركاتهم عند حملهم الصندوق أنه ثقيل والرفق الذي ظهر من خلال حملهم للصندوق، وأدرك بفطنته الوقادة في الحال، أن المسألة لا تخلو من تدبير أمر، فوضعوه في المكان الذي أمرهم الإمام أن يضعوه، وبعد وضعهم للصندوق، رجعوا مستبشرين مسرورين، وظنوا أن الأمر يسير لصالحهم.

ثم بعد ذلك أقبل الإمام عبد الوهّاب يتأمل الصندوق مليًّا، وتفقده من جهاته الأربع، فلم يجد له قفلاً من الخارج، فازداد يقينا فيما ظنه أن بالصندوق أمراً ومكيدة مدبرة.

ولما جنّ الليل على الإمام، شرع فيما عوّد نفسه به من تفقّد البيت، والقراءة والتهجد، ولما حان وقت النوم عمد إلى قربة فنفخها حتى إذا امتلأت هواء ربطها ربطاً خفيفاً بحيث يخرج منها نفس خفيف، يوهم أنه نفس الإمام وهو نائم ووضعها في أحدى زوايا البيت، وغطى القبة بثوب أبيض ليرى في الظلام، وأوقد قنديلاً في زاوية أخرى، وغطاه بوعاء يحجب ضوءه عن الناظر.

وانتحى الإمام بعد ذلك جانباً من البيت، لإحياء بقية ليله بالصلاة والاستغفار، واستعد تمام الاستعداد لمواجهة الموقف، ولما أحسّ صاحب الصندوق بعدم وجود القنديل، وسكون حركة الإمام ظنّ أن الإمام قد نام، وأن الفرصة قد حان وقتها، فتح الصندوق برفق، وخرج و سيفه بيده، ووقف مصغياً إلى النفس المنبعث من القربة، ظانًّا بأنه نفس الإمام، وتخيّل بياض الثوب المغطى به القربة أن ذلك هو الإمام عبد الوّهاب، فحمل الرجل بسيفه حملة البطل الشجاع وقدّ القربة نصفين، وعند ذلك كشف الإمام الغطاء عن القنديل، فبهت الرجل وأدركه الفشل وسقط في يديه، فبادره الإمام بسيف وقدّه نصفين، ولفه في ثوبه ورده في الصندوق حفرة الخداع، وبيت الخيانة، وأتمّ الإمام بقية ليله بالذكر والصلاة حامداً الله على توفيقه وحفظه من كيد الكائدين، ولعمري إنها أعظم المكائد لو صادفت المرمى، وهي من أقوى الدلائل على ما كان للإمام عبد الوهّاب من الذكاء والفطنة.

ولما أصبح الصباح، ولم يقع بالمنارة أذان، وقد قضى القوم ليلتهم في سهر، تساءلوا فيما بينهم عن صاحبهم، وقالوا: إما أنه لم يفعل شيئاً، وإما أن يكون قد دارت عليه الدائرة فقتل.

ثم اتفقوا على الذهاب إلى الإمام، لأخذ الصندوق بدعوى أنهم اصطلحوا واتفقوا ولم يبق بينهم في شأنه نزاع، ولما أتوا الإمام قابلهم الإمام بكلّ بشاشة بحيث لم يفهموا منه أنه حصل له شيء، أو حصل على صاحبهم شيء، وهذا موقف يدل

على قوة الإمام عبد الوهاب وثباته، ولما سألوه استرجاع الصندوق، قال لهم هو في مكانه الذي وضعتموه فيه، فاذهبوا فخذوه، ولما حملوه وذهبوا به إلى مأمنهم فتحوه فوجدوا صاحبهم ملفوفاً في ثيابه مخضباً بدمائه، وقد صدق في قوله من قال: (من حفر حفرة لأخيه المسلم أوقعه الله فيها).

عندئذ توقع القوم بأن تآمرهم ضد الإمام، سوف يتخذ الإمام منهم موقفاً حازماً، فتأهبوا للمواجهة، وصاروا يدخلون المدينة بأسلحتهم وكثرة العدد، مظهرين الشدة، وبعث الإمام إليهم من نصحهم من بعض خواص دولته، وكان ردهم أن حمل السلاح لا يعتبر معصية أو جريمة، والمؤمن لا يفارق سلاحه وقامت حروب بينهم وبين الإمام،ثم نصر الله الإمام عليهم،وتوفي بعد أن مكث تسعة عشر عاماً في الإمامة، وبعد وفاته بايع أهل الحل والعقد ولده أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً، فسار سيرة أسلافه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مقيماً لحدود الله، فرحم الله أولئك الأئمة وأسكنهم فسيح جناته آمين.

ذكاء الهرمزان :

ومن مواقف الذكاء والفطنة، يروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بالهرمزان أسيراً، فدعاه إلى الإسلام، فأبى أن يسلم، فأمر أمير المؤمنين بقتله، فلما عرض عليه السيف.

فقال الهرمزان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلي على الظمإ، فأمر له بماء ليشرب ،فلما صار الإناء بيد الهرمزان، قال: يا أمير المؤمنين: هل أنا آمن حتى أشرب؟. فقال له أمير المؤمنين عمر: نعم أنت آمن حتى تشرب، فألقى الهرمزان الإناء من يده وأراق الماء على الأرض، وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج.

فقال له أمير المؤمنين: لك حتى أنظر في أمرك، وأمر برفع السيف عنه، فلما رفع السيف عنه، قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فلما أعلن إسلامه، قال له أمير المؤمنين عمر: ويحك أسلمت خير إسلام، فما أخّرك؟.

قال الهرمزان: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال: إن إسلامي إنما كان جزعاً وخوفاً من الموت، فقال أمير المؤمنين عمر: إن لفارس حلوماً استحقت بها ما كانت فيه من الملك، فصار عمر بعد ذلك يستشير الهرمزان في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ، ويعمل برأيه.